

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،
وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ
وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

مناهج البحث العلمي في الإسلام

لفضيلة الأستاذ : عبد الوهاب التازي سعود



ديباجة الدرس :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
مولاي صاحب الجلالة أمير المؤمنين ، وسبط الرسول الأمين ، السلام عليكم
ورحمة الله تعالى وبركاته .

إن اللسان ليعجز عن البيان ، وإن اللغة لتضيق عن التعبير ، وقد شرفتموني بالجلوس
أمام جلالكم على هذا الكرسي لأفوز بالمشاركة في هذه الدروس الحسنية المنيفة، وليس
يحتفل يامولاي بالعلم والفكر إلا من عظمت قيمتهما في نفسه، وأدرك مكامتهما
السامية المتألقة، إدراك من عظم القرآن والسنة رسالة ورسولا، ومن أحب المنفعة لأمته
مسيرة ومصيرا .

وإننا لنحمد لدلائلكم — حفظكم الله — تنظيم هذه المجالس العلمية الرفيعة التي أحيتكم بها سنة جدكم المصطفى الأمين ﷺ ، إذ رعيتموها حق الرعاية، فكانت لكم لسانا صادقا تشهد بعطفكم الكبير، وحبكم الذي لا ينقطع على شؤون الإسلام والمسلمين .

إنها تشهد أنكم الملك العظيم الذي حفظ عرش بلاده، وزان تاريخها المجيد لمنجزاته العظمى واهتماماته الكبرى بأهل العلم والفكر والثقافة، زاد الله في توفيقكم لتتابعوا هذه المسيرة الإسلامية الخالدة، وأحاطكم — عز وجل — بعنايته الربانية ، آمين .

الفقرة 1 : موضوع الدرس وخطواته

أما بعد، فأستأذنكم يامولاي في أن أتناول درس اليوم انطلاقا من الحديث النبوي الشريف " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " . وسأتحدث تباعا عن الحديث ورواياته وسنده ومعانيه ولطائفه، ثم سأشرح بعض المفاهيم التي تتعلق به كالدين والشرع والفقه، كما سأفصل القول في المناهج العلمية عند المسلمين لأتطرق بعدها إلى الفقه في الدين وتكوين الفقيه ودوره في المجتمع خصوصا في عصرنا الحديث .

الفقرة 2 : عزو الحديث وتخرجه

حديث " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " ورد في صيغ متعددة في صحيحي البخاري ومسلم، وفي كثير من كتب السنة كمسند الإمام أحمد وسنن الدارمي والترمذي وابن ماجه والنسائي ، كما ورد أيضا في موطأ الإمام مالك رضي الله عنهم أجمعين .

وقد جاء من طرق أربعة عن الرسول ﷺ : رواه ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة ومعاوية ، في صيغ مختلفة عددناها فوجدناها تصل إلى ثلاث وعشرين رواية مختلفة.

نواتها الأولى قوله صلى الله عليه وسلم : رواه ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة ومعاوية، في صيغ مختلفة عددها فوجدناها تصل إلى ثلاث وعشرين رواية مختلفة .

نواتها الأولى قوله صلى الله عليه وسلم : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " .
مع زيادات في الأول والأخير .

وهي في البخاري أربع روايات : في كتاب العلم (مرتان)، وفي باب الاعتصام، وفي كتاب الخمس .

وفي صحيح مسلم روايتان : في الإمارة وباب النهي عن المسألة .

وفي سنن ماجة روايتان أيضا، وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل أربع روايات، كما ورد في مسند الإمام النسائي الذي ذكره في كتاب العلم .

في صحيح البخاري باب " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " جاء الحديث بزيادة في الأخير هكذا : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ؛" رواه البخاري عن سعيد بن عفير، قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمان، أنه سمع معاوية خطيبا يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم (الحديث) .

ثم ذكره مرة أخرى في باب آخر " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم " دون ذكر للسند .

وفي باب الاعتصام جاء الحديث على هذه الصيغة : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله " رواه البخاري عن إسماعيل عن ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حميد، قال سمعت معاوية ابن أبي سفيان يخطب، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (الحديث).

وورد ذكره كذلك في كتاب الخمس، باب قوله تعالى : { فَأَنْ لَّهُ خَمْسَةٌ وَلِلرَّسُولِ } ،

"من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين والله المعطي وأنا القاسم، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون " رواه البخاري عن ابن حبان عن عبد الله

عن يونس عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية قال،
قال رسول الله ﷺ (حديث).

أما في بقية المصادر التي ذكرناها فالاختلافات متعددة في الصيغة حسب الباب
الذي ورد فيه الحديث.

ويتساءل الإنسان عن سر هذه الاختلافات في الصيغة، والجواب أن رسول الله
ﷺ كان وما يزال هو المعلم الأول لهذه الأمة، وكان يرشد أصحابه ويعلمهم، فيأتي
بالفكرة الرئيسية في الحديث ثم يتبعه بكلام في المناسبات التي تستدعيها الظروف والحالة
التي قيل فيها ؛ لذلك تعددت صيغه ورواياته.

وإذا نظرنا في مختلف صيغ الحديث وملابساته نجد أن الأبواب التي ذكر فيها
برواياته المختلفة هي:

- باب فضل العلماء والحث على طلب العلم .
- باب الإمارة .
- باب النهي عن المسألة .
- باب الاعتصام .
- باب ماجاء في أهل القدر .
- باب الرقائق .
- كتاب الخمس .

الفقرة 3 : المغزى الإجمالي للحديث

وقد وقف شراح الحديث عنده طويلا، فترجموا لرجاله وذكروا معانيه ولطائفه .
وهو يشتمل على ثلاثة أحكام :

- فضل التفقه في الدين .
- أن المعطي في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى .
- أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبدا .

الأول : لائق بأبواب العلم .

الثاني : لائق بتقسيم الصدقات، لذلك أورده مسلم في باب الزكاة، والبخاري في باب الخمس .

الثالث : لائق بذكر أشراف الساعة، لذلك أورده البخاري مرة أخرى في باب الاعتصام لإلتفاته إلى مسألة عدم خلو الزمان من مجتهد .

وقد تتعلق الروايات الأربع بأبواب العلم خاصة، من جهة إثبات الخير لمن تفقه في دين الله، بأن يفتح الله عليه، ومن يفتح الله عليه لا يزال جنسه موجودا حتى يأتي أمر الله، وقد جزم البخاري بأن المراد بهؤلاء هم أهل العلم بالآثار .

قوله : " يفقهه " أي يفهمه، وهي ساكنة الهاء لأنها جواب الشرط، و " خيرا " نكرة لتشمل القليل والكثير، والتنكير هنا للتعظيم لأن المقام يقتضيه .

وذكر العيني في شرحه للبخاري في كتابه " عمدة القاري " لطائف إسناد هذا الحديث، فذكر أن فيه التحديث والعنونة والسماع، وأن روايته بين بصري وأيلي ومدني، ومنها أن فيه

رواية تابعي عن تابعي، ومنها أنه قال في الإسناد: " وعن ابن شهاب قال، قال حميد ابن عبد الرحمان ولم يذكر فيه لفظ السماع، وهكذا هو في جميع نسخ البخاري " .

علما بأن الحديث المعنعن هو الذي يقال في سنده : فلان عن فلان من غير التصحيح بالتحديث أو الإخبار أو السماع، وتشدد بعض المحدثين فعده من قبيل الحديث المرسل ، وهو الحديث الذي يرفعه التابعي، بأن يقول عن النبي ﷺ مباشرة، بينما المنقطع هو كان حديث سقط منه راو أو أكثر في أي موضع من السند .

أما السماع فهو واحد من الطرق الثمانية لأخذ الحديث وتلقيه، وهو أرفع درجات أنواع التحديث، وبواسطة السماع تلقى الحديث الرعيل الأول من المحدثين عن النبي ﷺ وهم الصحابة من المهاجرين والأنصار .

ومن مختلف روايات هذا الحديث استنبطت بعض الأحكام فيه :

- فضل التفقه في الدين على سائر العلوم .
- وفضل العلماء على سائر الناس .
- ودلالة على حجية الإجماع، لأن مفهومه أن الحق لا يعدو الأمة .

— وإخباره عليه السلام بالمغيبات .

— كما استدل به هذا البعض على امتناع خلو العصر من مجتهد .

الفقرة 4 : الفرق بين الدين والشرع والفقہ

وحيثما ننظر في هذا الحديث وفي تفاسيره تعترضنا مصطلحات ثلاثة هي : الدين والشرع والفقہ .

— يطلق لفظ الدين لغة على معان شتى، وهو من قبيل الألفاظ المشتركة عند أهل اللغة، فهو يفيد الجزاء كما في قوله تعالى: { **مالك يوم الدين** } ، ويفيد الطريقيق، كما في قوله تعالى: { **لكم دينكم ولي دين** } . وغير هذين المعنيين وارد لاحاجة لعباده من أحكام سواء ما يتصل منها بالعقيدة أو الأخلاق أو الأحكام العملية .

— والشرع مصدر شرع للناس كذا أي سنه لهم، وهذا شرع الله أي ماشرعه الله وسنه لعباده ، { **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا** } كما جاء في سورة الشورى ، وهو في الاصطلاح ما سنه الله سبحانه وتعالى من أحكام عقائدية أو علمية أو خلقية .

— وأما مادة الفقہ فهي من فقہ فقها .بمعنى علم علما، وهذه المادة وردت على الصيغ الثلاث : **فَعَلَ وَفَعِلَ وَفَعُلَ** ، فقہ يفقُه وفقه يفقُه وفقه يفقُه ، وهذه الثالثة هي التي تدل على التمكن والتعمق ، وأن الفقہ أصبح نعتا لصاحبه وسجية له ، فلم يعد فقط مجرد علم ومعرفة؛ والفقہ في الأصل الفهم، يقال أوتي فلان فقها في الدين ، أي فهما فيه، قال عز وجل : { **ليتفقهاوا في الدين** } " سورة التوبة" ، أي ليكونا علماء به، وعند الأصوليين والفقهاء المتأخرين يطلق الفقہ على العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية؛ والذي يخوض في هذه المسائل أصبح يطلق عليه الفقہ، وعند تعرضنا فيما بعد للمصطلحات الإسلامية سنرى كيف زحزحت بعض الألفاظ اللغوية مند بدء الاسلام عن معانيها اللغوية الأولى التي كانت معروفة لدى الجاهليين وأصبحت لها معان اصطلاحية ثانية في الإسلام.

الفقرة 5 : فضل العلم والعلماء في القرآن والسنة

كلنا يعرف أن الباعث الأول لنشأة العلوم الإسلامية هو الدين الجديد الذي حفز المسلمين بعد تدوين القرآن على تدوين الحديث واللغة وما تعلق بهما من العلوم .

وهناك آيات قرآنية كريمة تدعو إلى الخوض في العلم والانصراف إليه ، والتفقه فيه، والتدبر في العالم واعتبار خالقه وخلقه، والرفع من شأن العلماء ، كما أن هناك أيضا أحاديث نبوية كثيرة في الموضوع تحض على طلب العلم وتذكر بالثواب الذي يشبهه الله سبحانه وتعالى ويخصه لمن انصرف إلى العلم وتعاطى له .

وأستسمحكم يا مولاي في ذكر بعض هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة تبركا بها في هذه الليلة المباركة، وفي هذا المجلس العلمي الموقر الكريم .

قال عز وجل في سورة التوبة : { وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة

منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون } .

وفي سورة فاطر : { إنما يخشى الله من عباده العلماء } .

وفي سورة الزمر : { هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون } .

وفي سورة العنكبوت : { وما يعقلها إلا العالمون } .

وفي سورة الانعام : { وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ،

قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون } .

وفي سورة طه : { قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من

لساني يفقهوا قولي } .

وفي سورة طه أيضا : { وقل رب زدني علما } .

وفي سورة المجادلة : { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله

بما تعملون خبير } .

أما الأحاديث النبوية الشريفة في الموضوع فهي كثيرة كذلك نذكر بعضها :

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : " يا ابا ذر، لأن تغدو فتعلم آية من

كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عمل به

أو لم يعمل به خير من أن تصلي ألف ركعة " قال المنذري إسناده حسن.

وفي سنن ابن ماجة عن صفوان بن غسان المرادي قال : قال رسول الله ﷺ : " ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع".

وعن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر " . رواه أبو داوود والترمذي بسند منقطع، وقال البخاري إن له سندا آخر أصح من هذا.

الفقرى ٥ : عناية المسلمين بالبحث العلمي و تقعيد مناهجه و طرقه

هذه هي بعض الآيات الكريمة ، و الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في شأن العلم عند المسلمين ، و هي التي دفعتهم إلاء طلب العلمحتء نفدت أسواقه في المجتمع الإسلامي أيام الازدهار،فاعتنو بالبحث العلمي وبتقنية مناهجه و طرقه ،لذلك يصح أن نقول : إن الإسلام الذي بني على خمس قد أسس كذلك على ركاز وأساس آخر هو العلم فمع هذه الآيات و الأحاديث لا يصح للمسلم أن يكون جاهلا ، و أن لا يطلب العلم ، وأن ييقى غارقا في اللأمية لأمية لأنه سيكون قد أحل بمطلب من مطالب الإسلام الكبرى.

وقد خاض المسلمون في موضوع البحث العلمي بجد وحماس متأكدين من أن تقدم العلم رهين بتقنين مناهجه التي لها دةر كبير في ترتيب المعرفة العلمية وتطورها؛ وأن انتكاس العلم يكون سببه النقص في تطبيق المناهج العلمية وتحديدها؛ والمعرفة الواعية لمناهج البحث العلمي. هي التي تمكن العلماء الباحثين من الاتقان في مجالات بحثهم وتجنبهم كثيرا من الخطوات المتعثرة، وهذا ما فهمه علماء المسلمين منذ البداية فكانت لهم طرقهم ومناهجهم الدقيقة في البحث والاستقصاء.

والمناهج والمناهج هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن حقائق العلم بواسطة طائفة من القواعد المحددة التي يصل إلى نتيجة معلومة كان يبحث عنها، وبذلك يكون علم المناهج

هو العلم الذي يبحث في الطرق المستخدمة في العلوم للوصول إلى الحقيقة؛ وفقدان المنهج وقواعده وضوابطه يؤدي إلى الأخطاء الفكرية في الحياة العلمية.

الفقرة 7 : أصول العلوم الإسلامية وتطور نشأتها

وللعلوم الإسلامية أصول أربعة:

- المعرفة التامة بالقرآن والحديث.
- المعرفة التامة باللغة العربية لأنها لغة القرآن والحديث.
- العلم بأصول الفقه لأنه عماد الاجتهاد وأساسه.
- العلم بمقاصد الشريعة لمعرفة قصد الشارع من الأحكام وغاياته ومرامييه منها.

وقد كانت الثقافة الإسلامية شجرة وارفة الظلال، متنوعة الأفنان، متعددة الأغصان، كلها في خدمة الدين والقرآن، وعلاقة هذه العلوم بتفسير القرآن هي علاقة الخصوص بالعموم، لأن علوم التفسير وعلوم القرآن نشأت من تدبره وحفظه وتلاوته ومعرفة ناسخه من منسوخه وأسباب نزوله وغير ذلك .

كما أن علوم اللغة نشأت من قراءة القرآن وبحث ألفاظه ومعانيه والتحرز من اللحن والخطأ فيه .

وعلوم البلاغة وفنونها نشأت من محاولة الوقوف على مظاهر إعجازه .

- وعلم الأصول نشأ من ضبط منهج الاستنباط من أحكامه، إذ لم تكن عملية الاستنباط اعتباطية، وإنما كانت تجري حسب قواعد حصرها الأصوليون، ودققوا بها عملهم ومناهجهم .

- وعلم الكلام نشأ كذلك من حث القرآن على الدعوة إلى الله والدفاع عن الإسلام وتجريده مما يلحقه من تشويه .

- والفقه نشأ من تتبع أحكام القرآن في الحلال والحرام مع الاستدلال بالسنة النبوية المبينة لتلك الأحكام .

- وأخيرا نشأ علم التاريخ من دعوة القرآن إلى السير في الأرض واعتبار الأمم الغابرة،
وسنن الله في المجتمع البشري .

هكذا نرى أن القرآن الكريم يكون القاعدة الثقافية الكبرى التي تشكل النشاط الفكري
في المجتمع الإسلامي على مر العصور، وكل المفهومات الأساسية في المجتمع الإسلامي ظلت
تستمد أصولها وقيمها منه، وتقوم على قاعدته الروحية، وهو ما جعله المرجع العام لنشأة
الحضارة الإسلامية، وبوآه المكانة الخاصة التي احتلتها في توجيه حياة المسلمين الروحية
والفكرية والثقافية والاجتماعية .

ونظرا لكثرة الأحكام القرآنية المجملة، فإن الرجوع إلى الحديث النبوي الشريف كان
ضرورة قصوى لتبيينها وتفصيلها وتحديد المراد منها .

ومن مظاهر الحركة العلمية عند المسلمين أيضا التدوين التاريخي، لأنه يتعلق بسيرة
الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك للاهتمام بحياته والافتداء بها بتفاصيلها وأعماله كلها، وكذلك لوصف
المغازي وأخبار الفتوحات اعتناء بالنصر العظيم الذي أحرزه الإسلام ، فكان لزاما على
المسلمين أن يسجلوا هذه الفتوحات وقد فعلوا ذلك .

إذن، انبثقت من الإسلام حركة فكرية متنوعة تتناول القرآن وتفسيره، والحديث
وروايته، واللغة وقواعدها، والأدب وفنونه، والتاريخ وفروعه، والقضاء وأحكامه، ووجهت
هذه الأعمال كلها لخدمة الدين ونشر مبادئه، وتطبيق أحكامه؛ فكانت للفقهاء مذاهبه وكتبه
وأصوله، كما كان للدين أصوله ومتكلموه ومدوناته وفرقه .

وبعد تدوين الفقه وأصول الحديث تم تدوين اللغة والنحو؛ ويعترف اللغويين أنهم
إعتمدوا في تدوين أصول عملهم على أصول الفقه، يقول اللغوي الكبير ابن جني : " ينتزع
أصحابنا العلل من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة لأهم يجدونها منشورة في
أثناء كلامه، فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق " .

أما ابن الأنباري فقد قال في مقدمة كتابه " لمع الأدلة في أصول النحو " انه ألفه ليكون
للنحو بمثابة علم أصول الفقه، والسيوطي أكد ذلك في مقدمة كتابه " الإقتراح " أن كتابه هذا
بالنسبة للنحو كأصول الفقه بالنسبة إلى الفقه، ويقول إنه رتبته على نحو أصول الفقه في

الأبواب والفصول والتراجم لما بين النحو والفقهاء من مناسبة، فكل منهما معقول من منقول، كما أنه استخدم نفس المصطلحات : القياس، والعلة، واستصحاب الحال، والسماع، والإجماع وغيرها، وبذلك كانت للعلوم الدينية آثار كبيرة في العلوم اللسانية .

ونفس الشيء مع علوم الحديث، حينما أراد علماء اللغة أن يسيروا على نهج علماء الحديث في التوثيق حيث يروون الأخبار ومعاني الألفاظ، ويذكرون كل كلمة بسندها إلى الذي أخذت عنه، وكذلك الخبر؛ لكن الحديث محدود لأنه كلام النبي ﷺ ، أما اللغة كلها فلا يمكن أن يطبق عليها ذلك لاتساعها وتشعبها .

وهكذا استعمل المناهج الحديثة اللغويون الأولون وكذلك الأدباء المتقدمون؛ ونجد آثاراً لهذا في كتاب الأغاني، حينما يذكر الأخبار بالسند، لكن الأمر صعب عليهم بعد ذلك فتركوه وعادوا يذكرون الأخبار ويفسرون اللغة بدون ذكر سند، لأن حبل السند طويل جداً كما قلنا، ويذكر كمثال على تداخل المناهج أن الجرمي كان يشتغل بالحديث، فلما درس كتاب سيويه، وهو الكتاب الأول في النحو كما نعلم، قال : " منذ ثلاثين سنة وأنا أفتي الناس في الفقه من كتاب سيويه " ، وذلك بعدما تعلم منه المنهج وطرق النظر والتفتيش والبحث، فطبقها على العلم الذي كان يشتغل به، وهو الحديث .

الفقرة 8 : مسائل الاختلاف والاصطلاح والتفاعل في العلوم الإسلامية

هكذا كانت مناهج العلماء المسلمين وطرقهم في البحث العلمي، وقد كانت تتخلل اجتهاداتهم قضايا علمية ومعرفية طوال العصور؛ ومن أهمها قضايا الاختلاف في الرأي والنقل والعقل ، والمصطلح العلمي، ثم قضية التفاعل بين مختلف هذه العلوم .

وقضية الاختلاف في الرأي مهمة جداً؛ لأن الاختلاف في وجهة النظر، وتقدير الأشياء والحكم عليها أمر طبيعي في مجال العلم ، وهو ظاهرة صحية تغني عقل المسلم بخصوصية الرأي وسعة الاطلاع وبذكر آراء متعددة ومختلفة لعلماء كثيرين، فيكون أمام الباحث كثير من وجهات النظر وتتوافر له رؤية المسألة من زوايا وأبعاد متعددة .

وقد اهتم العلماء بهذا الموضوع وخصوه بتأليف نجد على رأسها كتاب ابن السيد البطليوسي الأندلسي الذي ألفه في القرن الخامس الهجري وهو " الإنصاف في التنبيه على

أسباب الاختلاف، لبيان أوجه الخلاف " — كما قال — في الملة الحنيفية: " حتى صار من فقهاءهم المالكي والشافعي والحنفي والأوزاعي ومن ذوي مقالاتهم، الجبري والقدري "، وذلك لعرض أسباب اختلاف الفقهاء والمتكلمين والنحاة والقراء وغيرهم .

ولابن تيمية كذلك رسالة قيمة في الموضوع عنوانها: " رفع الملام عن الأئمة الأعلام "، يقول فيها: " وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاما يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته ضئيل ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع رسول الله ﷺ وعلى أن كل واحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد من عذر في تركه، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

1- عدم اعتقاده أن ﷺ قاله .

2- اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول .

3- اعتقاده أن الحكم منسوخ .

ولعل كل هذه الأسباب تنحصر في سبب رئيسين:

1- الخلاف في ثبوت النص، خاص بالحديث والرواية .

2- الخلاف في فهم النص بحسب قواعد اللغة وأوضاعها المشهورة، وهذا

يشمل القرآن والحديث .

فاختلاف الفقهاء يرجع إلى اختلافهم في الأصل الذي بنيت عليه آراؤهم، ومنه ما يرجع إلى اختلافهم في الفهم والنظر فقط مع اتحادهم في الأصل الذي رجعوا إليه؛ فجميع الأحكام المستمدة من القرآن إنما يرجع الاختلاف فيها إلى اختلافهم في وسائل فهمه وطرائقه لا إلى اختلافهم فيه أو في ثبوته أو في وجوب العمل به " .

أما ما يخص المصطلح العلمي عند المسلمين فقد جدت منذ نزول القرآن الكريم كثير من المفاهيم لم تكن معروفة في العصر الجاهلي، فاقترضت لها مفردات من اللغة واستعملت استعمالا خاصا لم تكن تعرف به من قبل؛ فالصلاة في الجاهلية هي الدعاء،

وما زال هذا المعنى عندنا حيا : " اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل ســــيدنا محمد " . غير أن الصلاة في الإسلام صارت تفيد تلك الشعيرة التي نقوم بها على الوجه المعلوم في أوقات معلومة؛ فالمعنى كان عاما ثم خصص، وكذلك بالنسبة للزكاة التي هي في أصل اللغة النمو، من زكا يزكو إذ نما، وأصبحت في الإسلام يقصد بها ذلك القدر الذي يجب على المسلمين إخراجه من مالهم إذا اكتمل النصاب ومر عليه الحول .

وإذا قارنا بين معاني الألفاظ الأصلية الأولى وبين معانيها الجديدة التي نقلت إليها لاحظنا أن الثانية غالبا ما تخصصها وتحد من اتساعها فتصبح مقيدة بعدما كانت تطلق عاما ، وتفيد الخصوص بعدما أفادت العموم .

إن هذه الوسيلة في تنمية اللغة قد توبعت فيما بعد فساعدت على تطور العلوم الإسلامية ومكنت العلماء من إيجاد الألفاظ اللازمة للتعبير عن المسميات الجديدة . وهذا ما يسمى بالألفاظ الإسلامية عند فقهاء اللغة ، ولو سألنا كبار الأدباء الجاهليين عن معنى الفاعل مثلا لقالوا إنه " هو الذي يفعل الشيء " ، ولكنه أصبح الفعل أو من قام به، مجال العلوم الإسلامية يعرف بأنه هو الذي فعل الفعل أو قام به ، وكذلك الأمر بالنسبة للمبتدأ والخبر، ولكل مصطلحات علوم اللغة والبلاغة والفقهاء، مثلا : الوجود هو الطهارة في اللغة وفي الاصطلاح هو كذا وكذا ، أي ما اصطلاح واتفق عليه .

ذلك أن العلماء لما احتاجوا إلى توسيع اللغة لجأوا إلى هذا الباب وإلى الاشتقاق والمجاز والترجمة والتعريب والنحت، وهذه الطرائق هي التي مازال يتبعها علماء العربية اليوم وهم ينظرون في وضع مصطلحات جديدة لتمكينها من متابعة التطور والنمو مع تغير الحضارة الحديثة وتقدم العلم .

أما موضوع التفاعل بين العلوم الإسلامية فهو أيضا جد مهم ؛ فهذه العلوم لا ينبغي أن يدرس كل منها بمعزل عن الآخر، للتداخل الكبير بينها، ولأنها نشأت كلها من أجل خدمة هدف واحد هو القرآن الكريم ، ومن ثم فهي صادرة عن مصدر واحد ومتأثرة بعقلية واحدة ، والتأثر والتأثير بينهما واضح في المنهج والتطبيق والمصطلح .

لقد كان القدماء يعيشون في رحاب الفكر الإسلامي عامة وقليلًا ما يجسّون أنفسهم في التخصص العلمي الواحد ، فنجد العالم منهم مهتما ومعنيا في نفس الوقت بالقراءات والتفسير واللغة والحديث والبلاغة والنحو وغيرها من الموضوعات.

والحقيقة أن علماء التفسير كانوا أكثر الناس تطبيقًا لهذا التفاعل، لأنهم وهم يفسرون القرآن الكريم كانوا في حاجة إلى اللجوء إلى جميع العلوم الإسلامية بدون استثناء، وبذلك كانت العلاقة العضوية بين العلوم الإسلامية علاقة مكيّنة .
وقد رأينا أنها كانت تعتمد في مناهجها الأولى ساعة ضبطها وتوسيعها على مناهج العلوم الشرعية ، فكل من يحاول الخوض في علوم الشريعة دون التعمق في علوم اللغة فإنه يعرض نفسه للخطأ في الفهم والتأويل والتقويم .

والعالم المشارك كان قديما لا يقف عند الفقه ولا عند الأصول ولا عند النحو ولا عند البلاغة، بل كان يتناولها كلها بالدرس ويعتمدها في علمه العملي وإنتاجه الفكري . لذلك يجب أن يستمر التفاعل بين العلوم الإسلامية كلها اليوم ، لأن الخوض في شؤون الدين يتطلب معرفة تامة وشاملة .

كما يلزم اليوم أيضا أن يتعدى هذا التفاعل مجال العلوم الإسلامية إلى فضاء أوسع وهو التفاعل مع العلوم الأخرى، لأن العصر يقتضي ذلك؛ فالعلوم الإسلامية العقلية والنقلية في مجملها يجب أن تتصل بالعلوم العصرية الدقيقة التي لها مناهجها وروحها وقيمها وأهميتها في التكوين العلمي اليوم، وذلك بتوسيع مفهوم الفقه ليشمل الفهم والعلم عامة.

ولم يقصد النبي ﷺ بالفقه في الحديث الذي بين أيدينا المعنى الاصطلاحي الخاص الذي قصده المتأخرون، لأن المعنى اللغوي الأول كان هو الفهم والعلم ، أما تخصيص الفقه بالعلم المعروف لدى السادة الفقهاء اليوم فإنه جاء متأخرا بعد ذلك .

الفقرة 9 : ضرورة تجديد مفهوم الفقه وتكوين الفقه

وهكذا نتأكد من أن الأصول المتبعة في البحث العلمي لدى المسلمين دقيقة أمينة، فقد كان لهم منهج علمي راسخ قائم على احترام النص في النقل، ونقد النصوص بنوعيه الداخلي والخارجي ؛ وقد تطور هذا العمل تطورا كبيرا، واكتمل على مر العصور؛

والذين درسوه حديثا أعجبوا به خصوصا لدى المحدثين الذين كانوا يقومون بعملية الجرح والتعديل في السند لئلا يخوض في الحديث ويرويه في حقل المعرفة النظرية، والتجديد في حقل الفكر التجريدي .

والآن ، واعتبارا لأن الإسلام دين ودنيا وأنه صالح لكل زمان ومكان، وصالح للتطور الحاصل في المجتمعات، فإن التفقه في الدين بهذه الاعتبارات كلها يجب أن يتسع، وأن لا يقف عند الموضوعات التقليدية التي اعتاد فقهاؤنا في العصور المتأخرة أن ألا يتعدوها، فالفقيه هو صاحب التخصص في الفقه، والذي له الرأي في أحكامه، وهو القادر في حالات خاصة على الاستنباطات التي يفهمها أكثر من غيره فهما عمليا صحيحا بحسب القواعد الواردة في علوم القرآن والحديث ، وعلم أصول الفقه، إضافة إلى علوم العربية كما قلنا لما لها من أهمية في الموضوع .

والفقهاء هم المهتمون بشؤون الدين والدنيا ، التي أصبحت تتطلب أكثر من أي وقت مضى ثقافة خاصة ومناهج جديدة للعمل، وهم المفتون والمجتهدون في عصرنا إلى جانب طوائف جديدة من المفكرين والمثقفين .

وللمفكر المتخصص في الفكر الإسلامي مواقف في مجالات العقيدة وعلم الكلام ، لتعمقه في شؤون الحضارة والتاريخ والاجتماع ، وقدرته على تحليلها ومناقشتها والتأسيس للأفكار والنظريات التطبيقية الإسلامية .

كما أن للمثقف الإسلامي المطلع على الواقع وتطوراته وتياراته الاجتماعية والفكرية والثقافية والعلمية مواقف خاصة تجعله يتحرك ويعمل في إطار مرجعية علمية وفكرية حديثة وتحركا واعيا وهادفا وتكامليا .

هذا المثقف ينتمي للإسلام دينا ، ويتبعنا نظاما متكاملا للحياة، وله مواقفه التي تعتبر دون المكان والزمان في تغيير موضوعات الأحكام، كما أنه يؤمن بضرورة الانفتاح على ثقافة العصر والتعمق فيها، واستيعاب كل مظاهرها وخفاياها، فإلى جانب وعيه بالتراث ومعرفته له هناك وعي العصر ، وهذه ثنائية أصبحت الآن ملزمة يجب أن نأخذ بها في كل مراحل التعليم

والتكوين، في دراستنا الابتدائية والثانوية والجامعية العليا، لأن تكوين الإنسان على شق واحد يجعله ناقص الثقافة محدود الرؤية .

إن الدين الإسلامي في خضم التجربة الجديدة المعقدة وأمام الحضارة المتحركة المتحفزة المتعلنة له ما يؤهله ليكون شريعة المجتمعات المتقدمة ، إذا ما فهم حق الفهم وطبق أحسن تطبيق، وليشارك في تحقيق رغبات الإنسانية العاقلة ومثلها الكبرى للمجتمعات ، وفي طليعتها قانون المرونة والتيسير الذي أكدته القرآن الكريم في غير ما آية، وحض عليه النبي ﷺ أصحابه في غير ما موقف .

الفقرة 10 : أنواع الفقه المنشود

ولذلك إن العمل الإسلامي اليوم يجب أن يستمد أسلوبه من معاني اليسر والإحسان والاستقامة والإخلاص والتقوى، إلى جانب التزامه بالثقافة الحديثة بكل فروعها التزاما للمنهج القويم في الحياة وتطبيقا لدعوة القرآن ولتعاليمه وتوجيهاته ﷺ.

إن علماء اليوم وفقهاءه بالمعنى الصحيح، لا بد أن يتسع علمهم وعقلهم ليشمل كل المجالات ، بما فيها ، على الخصوص وفقه الدين الذي هو معرفة الحقائق الدينية من مصادرها الكبرى فقه الواقع الإنساني والمجتمعي الذي لا يقل عن فهم الدين أهمية ، وبمس الواقع الداخلي والخارجي وتطور العلوم الإنسانية والمجتمعية الحديثة .

وهناك فقه ثالث هو فقه التزليل أي أحكام تزيل القوالمعيش، وهذا لايعرفه كل الفقهاء؛ فقد يعرفون الفقه، وقد يعرفون الحضارة ولكنهم حينما يتزلون الأحكام لايتزلونها كما يجب في أمكنتها الحقيقية، والإخلال الذي يقع في تزيل الأحكام ومطابقتها للواقع هو الذي يوشك أن يحلل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله ، ويولد الفوضى والإضطراب والإختلاف في المجتمع . فقيهننا هذا الذي يفهم شؤون الدين والدنيا هو الذي سيفتي في القضايا الحديثة الكبرى التي يخوض فيها الناس اليوم ولا محيص من الكلام فيها ومناقشتها لأنها أصبحت حديث المجتمعات اليوم .

— كمسألة الإخصاب الصناعي .

— ومسألة استئجار الأرحام والإجهاض .

- وبنك الحيوانات المنوية .
- والتحول الجنسي .
- ومرض العصر الذي هو داء السيدا .
- وزرع الأعضاء وبيعها والتبرع بها .
- وموت الرحمة الذي هو المطالبة بالرفقة بالمريض الميؤوس من علاجه وذلك يجعل حدا لحياته .
- وكل المشاكل الاقتصادية المعقدة وعلى رأسها العمليات البنكية المتنوعة .
- وأهمية استعمال التقنيات الحديثة للتعريف بالإسلام (الأنترنت) وغيرها كثير وهو ما يوجب على الفقيه أن يكون على علم بما يحدث من المستجدات العلمية لتكون فتواه مقبولة ومطابقة للحقيقة الدينية والعلمية .

الخاتمة والدعاء والختم :

هذه يامولاي بعض دلالات الحديث الذي تفيأنا ظله وتمتعنا ببركته، وهو من الأحاديث الشريفة الذي ستبقى لها دائما أبعاد جديدة بحسب التطور والتغيير للواقع في المجتمع؛ ستكون معانيه دائما قائمة لدى المسلمين، دهر الداهرين وأبد الآبدين، لأن دلالاته تتجدد بتجدد الحياة وتطورها، فلا ينضب لها عطاء ولا يجف لها معين.

مولاي صاحب الجلالة والمهابة أمير المؤمنين حامي حمى الوطن والدين، ودرة العقد الثمين في تاريخ هذا البلد الأمين .

إن تنظيم هذه المجالس العلمية المنيفة، وهذا الجمع المبارك لصورة جليلة لثقافتكم الأصيلة، وتفتحكم الواسع على مختلف الثقافات وعلى علوم العصر، وتأكيد لدعوتكم المتجددة لبعث إسلامي جديد يراعي الثوابت والمتغيرات وينير الطريق للمسلمين نحو أفضل السبل لبناء الغد المشرق إن شاء الله .

أبقاكم الله يامولاي ذخرا لهذه الأمة ورمزا للوحدة وقائدا للمسيرة، ورائدا للنهضة،
ووليا للعلماء، ومعلما للأجيال المقبلة، وحفظكم الله في صحة كاملة، وعافية تامة، وأطال
عمركم، وأبقاكم ملجأ وملاذا لهذا الوطن خاصة، وللعروبة والإسلام عامة، حتى يعيد الله
سبحانه وتعالى على يدكم مجد المسلمين وعزتهم وحفظكم الله في ولي عهدكم المحبوب الأمير
سيدي محمد، وصنوه الأمير مولاي رشيد وسائر آل بيتكم الأطهار.

{ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب } .

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمن علمنا ولمن سبقنا بالإيمان ولمن له الحق علينا، يأرحم
الراحمين يارب العالمين، إنك أنت السميع العليم .
والختم من مولانا أمير المؤمنين حفظه الله .

{ إن الله وملائكته يصلون على النبي، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما } .

{ سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب

العالمين } .